

وما مات إذ ماتت بحزن نساؤه وماتت بأحزان البلاد (هاتهُ)

وإن في هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على أن شعراء هذا العصر اندفعوا اندفاعاً شديداً نحو الدعابة اللفظية وما يطوى فيها من توريات، حتى لئراهم يفزعون إليها في مزالِق حرجة تأبها كمزلق الرثاء، ولكنها كانت روح العصر، وقد انتشرت هذه الروح في الناس جميعاً حتى في الشيوخ الذين يعرفون بالتحذلق والتزمت، فقد فتح الحموى في خزائنه فصلاً طويلاً لتوريات بعض الشيوخ وعلى رأسهم بدر الدين الدماميني وابن حجر العسقلاني. والحق أن روح الفكاهة تجلت في هذا العصر على كل لسان، وفي كل موضع من وصف أو بيان. وانظر إلى هذه التورية البديعة لعلى بن برديك في بدر الدين الدميري وكان يلقب بكتكوت :

إنّ الدميرى صديقى فلا أسمعُ فيه قولَ واشٍ ولاخٍ
ولا أرى كالعَيرِ تقييحَه بل هوَ عندي من (مِلاحِ المِلاحِ)

والنكتة واضحة في كلمة ملاح الملاح، ويظهر أن هذا النداء على الكناكيت كان معروفاً في مصر منذ ذلك الحين إن لم يسبقه. ويروى ابن إياس أنه وقعت بين أحمد بن على المقرئ وبين على باى بن برقوق وحشة فسامه المقرئ (زلايية) باسم شخص من الأتراك كان مضحكاً تعبت به العامة ويقولون له زلايية، فبرجهم، فلما أشيع قول المقرئ في ابن برقوق أخذه بعض الشعراء وقال :

قد شبهوه بمن يُدعى زلاييةً وصحَّ تشبيهم والأب برقوق
لكنهم فاتهم في الوز نسبتُهُ فإنَّ إسمَ أبيه نصفهُ (قوق)^(١)

وعلى هذا النمط كلما تصفحنا آثار عصر المماليك ترامت إلينا سيول شتى من فكاهات الشعراء وتورياتهم ودعاباتهم .

(١) تثبت الهمزة في اسم لضرورة الوزن